(٤١) التوبة وسعة رحمة الله

الخُطْبَةُ الأُولَىٰ:

إِنَّ الحَمْدَ للهِ،نَحْمدُهُ وَنَسْتَعِيْنُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ،وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُور أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَات أَعْمَالِنَا،مَنْ يَهْدِه اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ،وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[آل عِمْرَان: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النِّسَاء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[الأَحْزَاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيث كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ .

أيها الناس: حديثنا معكم بإذن الله جَلَّوَعَلَا في هذه الجمعة المباركة بعنوان التوبة وسعة رحمة الله.

عباد الله: لقد وصف الله المؤمنين بصفات جليلة ، وذكر أول صفة

من صفاتهم التوبة فقال جلت عظمته في كتابه العظيم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وبين في موضع آخر من كتابه الكريم أن التوبة من صفات المتقين، فقال عز شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمر: ١٣٥].

والتوبة فرض على المؤمنين يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال عز شأنه في كتابه الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

وقال تعالى على لسان شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وفي صحيح مسلم [١] عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**».

فهذه الأدلة وغيرها تدل على أن التوبة إلى الله جَلَّ وَعَلَا واجبة على كل

(١) مسلم برقم (٢٧٠٢).

مسلم ومسلمة ، وأنها فرض عين على كل مكلف ، ولذلك أجمعت الأمة على وجوبها.

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجامع لأحكام القرآن[١] ، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين.

لقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١].

وقال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : الإجماع منعقد على وجوب التوبة.[٢]

والتوبة هي الرجوع إلى الله عما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا ، إلى ما يحبه الله ظاهراً و باطنًا[٣] وهي حقيقة دين الإسلام.[٤]

والتائب وصف له : يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة ، فالعبد تائب إلى الله ، والله تائب على عبده ، والتواب العبد الكثير التوبة ،وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركًا لجميعها.

وقد يقال لله عَزَّوَجَلَّ ذلك أي تواب وذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالًا بعد حال ، والمتاب في قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان : ٧١]. يقصد به التوبة التامة ، وهي الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل[٥].

ومن رحمة الله جَلَّوَعَلَا بعباده أن فتح لهم باب التوبة ففي سُنن الترمذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٥(٩٠).
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص(٢٥١)..
(٣) مختصر منهاج القاصدين ص(٢٥١)
(٤) مدارج السالكين ج١(٣٤٣).
(٥) نظرة النعيم ج٤(١٢١٦٩).

وغيره بسند صحيح[١].

عن صفوان بن عسال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل باباً، بالمغرب مسيرة عرضه سبعين عاماً للتوبة، لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله، وذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾** [الأنعام: ١٥٨].

وباب التوبة مفتوح كل وقت من ليل أو نهار للتائبين، كما جاء ذلك في صحيح مسلم[٢] عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**».

أيها المؤمنون: إن التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خير من الدنيا وما فيها، قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٧٤].

وهذا رسول الله يخبره ربه بأن يجعل لقومه الصفا ذهبًا، أو يجعل لهم باب التوبة والرحمة، فاختار نبينا ﷺ لهم باب التوبة والرحمة وهذا من حرصه ﷺ على أمته: ففي مُسند الإمام أحمد[٣] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن

(١) الترمذي برقم (٣٥٣٦) وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) مسلم برقم (٢٧٥٩).
(٣) أحمد برقم (٢١٦٦) وسنده صحيح.

بك، قال: «**وتفعلون؟**» قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: « **إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة قال: بل باب التوبة والرحمة**» .

معاشر المؤمنين : إن التوبة ليست خاصة بالمذنب الجاني ، بل عامة في حق جميع المؤمنين الذين يريدون الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : من لم يتب في كل صباح ومساء فهو من الظالمين لقوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾[الحجرات :١١].

سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ:

قال تعالى :﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ، ورجع عنها وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت مثل زبد البحر.....أهـ[١] .

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله[٢] .

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ

(١) تفسير ابن كثير ج٤(٥٩).
(٢) تفسير ابن كثير ج٤(٦٠).

ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤].

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠].

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٦].

وقال تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء : ٢٦ -٢٧].

فانظر يا أخي المؤمن ؛ كيف كرر الله ذكر التوبة مرتين ، لأن العبد يتكرر منه الذنب.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٨].

يا من عدى ثم اعتدى ثم اقترف ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف

أبشر بقول الله في آياته إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦].

أيها الإخوة ، لقد فتح الله جَلَّوَعَلَا باب التوبة والإنابة بعد كل كبيرة من الكبائر ، حتى لا يقنط أحد من رحمة الله وفضله ، وفي هذه الأمثلة التي سأتلوها على مسامعكم أكبر دليل على سعة رحمة الله جَلَّوَعَلَا وعفوه وكرمه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الفرقان : ٦٨ -٧١].

وقال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [آل عمران : ٨٦ -٨٩].

وثبت عند الإمام النسائي[1] عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه: سلوا رسول الله ﷺ : هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن فلانا قد ندم، وإنه قد أمرنا أن نسألك: هل له من توبة؟ فنزلت ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأرسل إليه فأسلم .

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ

(١) النسائي ج٧ (١٠٧) وصححه شيخنا العلامة مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُٱللَّهُ في الصحيح المُسند مماليس في الصحيحين برقم (٥٩١).

جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠].

فتأمل قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ ، أي: لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ .

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : انظروا إلى هذا الكرم والجود ،قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.(١)

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المائدة : ٣٣- ٣٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم : ٥٩ -٦٠] .

فيا من ضيعت الصلوات ، وأقبلت على الشهوات ، اتق الله وأقبل على مولاك ، وتب إلى ربك من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال.

قدم لنفسك توبة مرجوة قبل المنات وقبل حبس الأنفس

بادر بها غلق النفوس فإنها ذخر وغنم للمنيب المحسن

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ

(١) تفسير ابن كثير ج٤(٤٩٧).

ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾ [النور : ٤ -٥].

مع أن القذف من كبائر الذنوب فقد فتح الله لهم باب التوبة والإنابة.

وفي صحيح مسلم [١] عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله، أصبت حداً فأقمه عليَّ ، فدعا نبي الله ﷺ وليها، فقال: «**أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها**»، ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ ، فشكت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال: «**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟**» .

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن نبي الله ﷺ قال: « **كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة** »، قال قتادة: فقال الحسن ذكر لنا، أنه لما أتاه الموت نأى

(١) مسلم برقم (١٦٩٦).

بصدره»[١].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا ، لأتيتك بقرابها مغفرة**»[٢].

فسبحان من يغفر الزلات ويقيل العثرات ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

أيها المؤمنون : لقد دع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النصارى إلى التوبة بعد مقالتهم الشنيعة كما أخبر الله عنهم يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة : ٧٣].

ثم حرضهم على التوبة فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٤].

ولقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: عن الملائكة أنهم يقولوا :﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧].

وقال ربنا جَلَّ وَعَلَا :﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ

(١) البخاري برقم (٣٤٧٠) ومسلم برقم (٢٧٦٦).
(٢) الترمذي برقم (٣٥٤٠) والصحيحة برقم (١٢٧) .

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦].

وقال عز شأنه في كتابه الكريم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢].

وفي صحيح مسلم [١] أن رسول الله ﷺ **قال : «يقول الله تعالى في الحديث القدسي : يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم »** .

فنسأل الله جَلَّوَعَلَا أن يمن علينا بالقبول والتوبة النصوح ، وأن يتوفانا مسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

(١) مسلم برقم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ .

الخُطْبَةُ الثَّانِيَة :

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوبة شديد العقاب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن التوبة إلى الله تعالى وظيفة العمر وبداية العبد ونهايته ، وأول منازل العبودية وأوسطها وآخرها ، فما أحوجنا إلى التوبة النصوح لا سيما وذنوبنا كثيرة وأخطاؤنا جسيمة، نذنب في الليل والنهار والله يستر العيوب ويغفر الذنوب ، فمن وفق للتوبة فقد وفق لخير الدنيا والآخرة ، وكما قال بعض السلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية.

والتوبة - يا عباد الله - واجبة من كل ذنب ولها ثلاثة شروط:

الأول : الإقلاع عن المعصية.

الثاني : أن يندم على فعلها.

الثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدًا.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فيزاد شرط رابع وهو أن يبرأ من حق صاحبها .

قال عليه الصلاة والسلام : «**من كانت عنده مظلمة لأخيه فإنه فليتحللها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن**

له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه» [١].

أخي المسلم : لو رأيت التائب رأيت جفنًا مقروحًا ، تراه في الأسحار على باب الاعتذار مطروحًا، سمع قول الإله:﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾، مطعمه يسير وحزنه كثير ومزعجه مثير ، وكأنه أسير قد أنحل بدنه الصيام، وأتعب بدنه القيام ، فبذل بدنًا وروحًا ، توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، أين من يبكي جنايات الشباب التي بها قد اسود الكتاب ، أين من أتى الباب يجد الباب مفتوحًا ، توبوا إلى الله توبة نصوحًا. [٢]

أمة الإسلام : والتوبة إلى الله جَلَّوَعَلَا لها فضائل كثيرة ، وفوائد متعددة ، فهي سبب للفلاح والفوز في الدنيا والآخرة ، قال ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ :﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴾ [القصص الآية ٦٧].

وهي سبب للمغفرة من الله للتائبين كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢].

التوبة إلى الله رب العالمين سبب للمتاع الحسن ، ونزول الغيث وزيادة القوة والإمداد بالأموال والبنين ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴾ [هود : ٣].

وقال تعالى إخبارًا عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ :﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ

(١) البخاري برقم (٦٥٣٤).عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ
(٢) غالية المواعظ للألوسي ص(١١١).

وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح : ١٠ -١٢].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: على لسان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ :﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٢] .

ومن فضائل التوبة أن الله عَزَّوَجَلَّ يحب التوابين كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢١].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : أكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها فضلًا عن القيام بها ، علمًا وعملًا وحالًا ، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواصه الخلق لديه [١] .

ومن فضائل لتوبة أن الله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبة التائبين ففي صحيح مسلم[٢] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : « **لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها - الخطام هو الحبل-، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح** » .

وهذا فرح عظيم من الله الرؤوف الرحيم بتوبة التائبين إليه ، الله أكبر، إن هذا الفرح لم يجئ في شيء من الطاعات سوى التوبة كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ، فأين التائبون إلى الله المقبلون عليه بالذل والانكسار.

---

(١) مدارج السالكين ج١ (٣٤٣).
(٢) مسلم بقم (٢٧٤٧).

قال إبراهيم الكينعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ببابك عبد واقف متضرع مقل فقير سائل متطلع
حزين كئيب من جلالك مطرق ذليل عليل قلبه متقطع

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بالفقر والافتقار والذل والانكسار تحيا قلوب العارفين.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فؤادي محزون ونمومي مشرد ودمعي مسفوح وقلبي مروع[١]

عباد الله التوبة المقبولة لها علامات:

قال شقيق البلخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: علامة التوبة البكاء على ما سلف ،والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء وملازمة الأخيار[٢].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ابن آدم ، ترك الخطيئة أهون عليك من معالجة التوبة ، ما يؤمنك أن تكون عملت كبيرة أغلق دونها باب التوبة ، فأنت في غير معمل[٣].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أراد التوبة فليخرج من المظالم ، وليدع مخالطة الناس وإلا لم ينل ما يريد[٤].

وليحذر المسلم من الابتداع في دين الله ، فإن البدع سبب من الأسباب المانعة لقبول التوبة كما قال عليه الصلاة والسلام «إن الله احتجر التوبة

---

(١) البدر الطالع للإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ص(٢٦) وما بعدها.
(٢) سير أعلام النبلاء ج٩(٣١٥) .
(٣) سير أعلام النبلاء ج٤(٥٧٨).
(٤) سير أعلام النبلاء ج٧(٣٨٩).

على كل صاحب بدعة»[١].

ومعنى احتجر: أي منع.

وكذلك الإدمان على شرب الخمر ففي سُنن الترمذي[٢] عن عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله ﷺ: «**من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخبال**» قيل: يا أبا عبد الرحمن: وما نهر الخبال؟ ، قال: نهر من صديد أهل النار.

ولا تنسوا- يا إخوان - أن الإصرار على الذنوب ينافي التوبة الصادقة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥].

وقال تعالى في شأن من يعود لقتل الصيد وهو محرم: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة : ٩٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: في أكلة الربا: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥].

هذا والله نسأله المزيد من فضله والعون على طاعته ، اللهم تقبل توبتنا واغسل حوبتنا واغفر زلتنا يا أرحم الرحمين.

---

(١) الصحيحة برقم (١٦٢٠) وهو في المختارة للمقدسي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) الترمذي برقم (١٨٦٢) وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات : ١٨٠ -١٨٢].

اللهم إنا نسألك رحمة من عندك تهدي بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وترد بها الفتن عنا ، وتحفظ بها غائبنا ، اللهم اجعلنا حربًا على أعدائك ، سلمًا لأوليائك ، نحب بحبك من أطاعك من خلق ، ونعادي بعداوتك من عاداك من خلقك ، اللهم إنا نسألك الفوز عند القضاء والنصر على الأعداء ، ومنا زل الشهداء ، ومرافقة الأنبياء ، اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء اللهم أصلح الراعي والرعية وأهد الأمة المحمدية يا أرحم الراحمين.